من آثار الإسلام في الهند

تاج محل

للدكتور عبد الوهاب عزام بك

وزير مصر المفوض في المملكة السعودية

ملنا عن الجادة الكبرى في أكراصوب المشرق فرأينا حُجُرات وقباباً متفرقة . ثم دخلنا ساحة واسعة في جانبها من الشرق والجنوب رواقان كبيران كأنهما أعدا لإيواء الزائرين والحرّاس . وإلى الشمال مدخل المزار وهو كالداخل الأخرى ، عَقد رفيع تتصل به حجرات في طبقتين . وهو أصغر من مدخل مزار جلال الدين أكبر الذي وصفناه قبلا ؛ ولكن فيه من الضخامة والعلاء والجمال ما يؤهله أن يكون مطلعاً للقصيدة الرائعة التي وراءه .

وعلى طاق المدخل الداخلي كتبت سور من القرآن : الضحى ، وألم نشرح ، والتين . وقد خطت الآيات بخط يختلف كِبَراً وصِغَراً على نسبة بُعده عن الناظر فيرى القارىء ما بعُد منه وما قرُب بمقدار واحد .

فإذا التفت القارىء إلى الحديقة وأحواضها ونافوراتها وهذا الهيكل الجميل الماثل في وسطها ، ازدحمت على بصره وعقله وقلبه مناظر وأفكار وعواطف تقفه معجباً مرتاعاً .

حديقة فسيحة ناضرة يزدحم فيها الشجر ، وتتشابك الأغصان والتاج في الوسط ، وفي أقصى الحديقة إلى اليمين والشمال بناءان تطفو قبابهما من بعيد على هذه اللجة الخضراء . وسنذكرهما بعد . ويشق الحديقة من مدخلها إلى التاج حوض مستطيل اصطفت فيها نافورات يخر ماؤها في الحوض فتسمع وسوسة تخالها موسيقى هذا الجمال أو قصيدة تصف هذا المزار يهمس بها شاعرها .

ويمتد على جانبي الحوض خندقان فيهما نبت وزهر تُناسِبُ نضرتهما واهتزازهما صفاء الماء ورقرقه ، ووراء هذين على الجانبين تمشيان عريضان .

فإذا سار السائر على أحدهما وقفه في نصف الطريق حوض عال من المرمر يصعد إليه خمسَ درجات في جوانبه الأربعة . وله حافة واسعة يقف عليها الزائر أو يجلس على أحد المقاعد الرخامية الأربعة في جوانبها فيتأمل في هذه المرآة الرائعة صورة التاج . فيحار طرفه بين المنظرين ، وينقسم إعجابه بين الصورتين . فإذا رافه هذا المنظر جلالاً وجمالاً وملأ روعة وإعجاباً هبط إلى التاج عبر حوض الجمال الماثل أمامه فينتهي المسير إلى دكة فسيحة من الحجر الوردي تحيط بالبناء تعلو عن الحديقة خمس درجات يتقسمها أحواض الماء ومجاريه . وفوقها الدكة العليا الرخامية التي هي قاعدة هذا التمثال المسمى بالتاج ، فيخلع نعليه إكباراً لهذا الجمال وإجلالا فيصعد إحدى وعشرين درجة إلى الساحة العليا فوق الدكة الرخامية الرائعة . وعلى زوايا هذه الدكة أربع منارات عالية ضخمة كلها من الرخام الأبيض وهي منفصلة عن البناء في منظر متناسب متناظر ، ثم يتقدم إلى الحرم الرائع في جلته ، المحير في تفصيله ؛ إذا نظرت إليه كله راعتك القبة البيضاء وحولها قباب صغيرة في أركان البناء بينها منارات صغيرة في جوانبه الأربعة ومنظر الباب والشبابيك الرخامية ، أبدعت فيها الهندسة وتم فيها التناسب والتناسق .

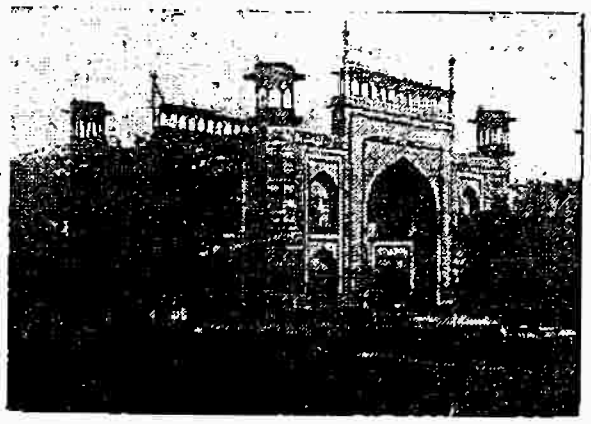

مدخل الحديقة التي فيها تاج محل

وإذا تأملت تفصيله ، رأيت من دقائق الصنعة في النحت والتشكيل والتحلية والترصيع والكتابة والتصوير إبداع الصنعة وإعجاز الفن .

وتصعد أربع درجات أخرى ، وتقف أمام البـاب فتقرأ على الطاق العالى أول سورة يس كأنها تعويذة لهذا الجمال من العين ،

قبر ممتاز محل (إلى اليمين) وقبر شاهجهان

ولـكن جمـال الخط فى حاجة إلى التعويذ كذلك . وترى حول الباب سورة « إذا الشمس كورت » . وعلى الطاق من الداخل أول سورة تبارك . وتحتها : « كتبه الفقير الحقير أمانت خان الشيرازى سنة هزار وچهل وهشت هجرى مطابق دوازدهم سنة جلوس مبارك

وترجمة التاريخ :

« سنة ثمان وأربعين وألف هجرية المطابقة السنة الثانية عشرة من الجلوس المبارك » (يعنى جلوس شاه جهان) .

وندخل وفى النفس ما فيها ، فتخطو خطوات إلى درج يهبط إلى حجرة واسعة فيها قبران . فى وسط الحجرة ضريح (ممتاز محل). ومن أجلها بنى زوجها شاه جهان هذا البناء كله ، وإلى جانبه قبر أكبر منه هو قبر هذا الزوج الوفى . ويقال إنه أراد أن يبنى لنفسه مزاراً آخر من الرخام الأسود على الشاطىء الآخر من نهر جمنه كأنه أراد أن يقوم مزاره أمام هذا التاج فى ثياب الحداد أيد الدهر . ولـكن ابنه وخليفته أورنك زيب (زينة العرش) وكان مقتصداً زاهداً آثر أن يدفن أباه بجانب زوجه .

وترجع إلى الدرج صاعداً لتدخل حجرة فوق الحجرة التى فيها القبران ، وفى الحجرة مقصورة من الرخام المخرم نفيسة المادة جميلة الصورة . كان لهـا باب من حجر اليشب نهب فيما نهب فى ثورة الجيـات .

وفى وسط المقصورة مثالان للقبرين ، وعلى هذين المثالين وجدر الحجرة من الأحجار الثمينة المنزلة فى الرخام على صور أزهار وأشجار ،

ومن الـكتابة الجميلة ، ما يود الزائر أن يقف أمامه لا يبرحه ، وأن يعود إليه عاجلا إذا برحه . وأما الخبراء بالصنعة فلا ينقضى عجبهم وإعجابهم بهذا الإعجاز .

وعلى قبر ممتاز محل هذه العبارة :

« مرقد منور أرجمند بيكم مخاطب ممتاز محل توفيت سنة ١٠٤٠ »

(المرقد المنور للأميرة الفاضلة الملقبة ممتاز محل الخ) .

وعلى قبر شاه جهان :

« مرقد منور وروضة مطهر بادشاه رضوان استكاه . خلد آرامكاه أعليحضرت عليين مكانى ، فردوس آشيانى صاحب قران ثانى شاه جهان بادشاه غازى طاب ثراه وجعل الجنة مثواه .

درشب بيست وششم شهر رجب سنة هزار وشصت وهفت هجرى) وترجمتها :

منظر التاج على نهر جمنه وصورته فى الماء ويظهر المسجد إلى اليمين وجانب من البناء الناظر للمسجد إلى الشمال

(المرقد المنور والروضة المطهرة للسلطان ساكن الرضوان ، نزيل الخلد من مكانه عليون ، ومأواه الفردوس ، صاحب القران الثانى ، السلطان شاه جهان الغازى طاب ثراه وجعل الجنة مثواه .

فى ليلة السادس والعشرين من شهر رجب سنة ١٠٦٧) .

وإذا ترك الزائر هـذا المقام الجليل وهبط على درجات الدكة الهائلة فتوجه نحو الشمال رأى نهر جمنه وراءه المنشأة(١) العظيمة التى بنيت على النهر لتدعم هذه الروضة وما فيها من أبنية ، ورأى درجاً داخل السور يهبط إلى الماء . وكم أعجب التاج بجماله فى هذا النهر وأولع المصورون بتصوير البناء وعكسه فى الماء .

(١) الأساس يبنى على جانب النهر .

وعلى النهر، فى منتهى الروضة إلى الغرب مسجد جميل أمامه ساحة فسيحة مرتفعة لها درج . وهو أسلوب آخر من إحكام الهندسة وإتقان الصنع والتصرف فى هـذا الحجر الوردى الذى بنى به . ولا أشق على القارىء بوصفه .

ويقابل هـذا المسجد على النهر فى الجهة الشرقية بناء آخر يشبه المسجد فى جلالته وتتصل به أبراج ومنظرات مشرفة على النهر. وقد بنى مناظرة للمسجد ولهذا يسمونه « الجواب » . وهندسة الأبنية التيمورية كلها قائمة على التناظر والتشاكل فلم يجيزوا أن يبنى المسجد فى زاوية من الحديقة دون أن يناظره بناء فى الزاوية الأخرى .

زرت التاج ثلاث مرات فى يوم وليلة . وأود الآن أن أعود إليه فأقيم عنده أياماً . وقد وصفت بعض ما بقى فى الذاكرة منه ووراء هذا ما لا يستطيعه الوصف ، ولا يحيط به البيان . ولعل الصور التى مع هذا المقال تعين القارئ على تصوُّره

* * *

فى مقال (أكرا) من دائرة المعارف البريطانية :

« عظمة أكرا مستمدة من أجل أبنية العالم : البناء الشعرى تاج محل... صُوِّرَ التاج ومُثِّل أكثر من أى بناء آخر فى العالم . وصُوَره لا عدَّ لها . وغاية ما يوصف به أنه حلم من الرخام .

وهو فى التلوين والرسم وصناعة التحلية والتزيين يفوق كلّ عمارات العالم . ومظهره المتناسب إذا رُئى مرة لاينسى أبداً ولا تُنسَى رشاقة قبابه التى تعلو فى الهواء كفقاقيع من المرمر فى زرقة السماء .

يقول فرجسون فى كتابه تاريخ العمارة :

« هـذا البناء مثال من الترصيع بالأحجار الكريمة الذى صار من أكبر خصائص الفن المغولى بعد موت أكبر .

كل زوايا التاج وكل الأركان والأجزاء المهمة مجللة بالأحجار الكريمة .

إنه أجل وأنفس أسلوب من التزيين عرف فى فن العمارة .

وهذه الزينة مُفَاضَةٌ على القبرين وعلى المقصورة المحيطة بهما ولكن يُقتصَد فيها فى المسجد الذى يمثِّل أحد جناحى التاج وعلى المنافورات والأبنية المحيطة .

والمقدرة التى لاءمت بين هـذه الزينات فى الأجزاء المختلفة عظيمة كالزينة نفسها وتدل على مستوى عال فى الذوق والمهارة لصناع ذلك العصر .

ويقول اللورد روبرت فى كتابه « إحدى وعشرون سنة فى الهند » :

لا اللفظ ولا الريشة يستطيعان أن يوحيا لأوسع القراء خيالا أصغر الفكر عن الجمال والصفاء فى هذه الفكرة المجيدة .

وإنى أقول لمن لم يروه : « اذهبوا إلى الهند فالتاج وحده أهل لهذه الرحلة » .

* * *

وأما أنا فقد سطرت الكلمات التالية بعد أن زرت تاج محل وعدت إلى دهلى :

وقفة على تاج محل

كم تمنيت أن أقف هذا الموقف ، وكم تخيلت أنى أسرّح الطرف فى هذا المشهد ؛ وكم قرأت حديث التاج ، وسمعت قصة التاج ، ورأيت صورة التاج . فالآن فلتَقَرَّ العين جهرة ما شاقها إليه القراءة والسماع :

أشجار خضراء ناضرة ، تحيط ببَنَدِيَّة بيضاء ناصعة ، وتشق هذه الخضرة إلى هذا البياض طرق وأحواض ، وفى مطمح البصر إلى اليمين والشمال قباب عالية وردية مطلة على نهر جمنه .

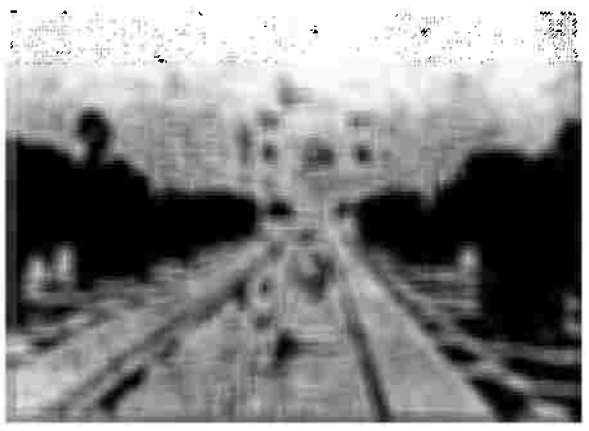

منظر التاج من جهة المدخل

أما هذا البناء الأبيض المشرف وسط هذه الخضرة ، الذاهب فى الهواء بقبته الكبيرة حولها قباب صغيرة ، وقد لاحت نوافذه

وشبابيكه وعقوده تتنازع العيون والقلوب وقامت حوله هذه المآذن الأربع العالية الجميلة — هذا البناء العجيب لا أدرى ما هو ! !

أقصيدة من الجمال معانيها ، ومن الرخام ألفاظها ، ومن دقائق الصنعة قوافيها وتفعيلاتها ؟ ما أجمل الشعر وما أبلغ الشاعر !

الحان مجسَّمة ، وأنغام ممثلة ، وأغانٍ مصورة ؟ ؟

ما أجمل الألحان وما أعذب الأنغام ، وما أحسن الغناء ! !

أ أماني أبدع فيها الخيـــال ، وآمال انفسح فيها المجال ، ثم استحالت حقائق ، وانقلبت هياكل ؟! ما أبعد الأمانى وأعظم الآمال ! وما أشد ما تحقق المحال ! !

أم تلك أحلام ، أم بدائع أوهام ؛ ليست أفانين الرخام .

وما هـذه الخطوط الجميلة ، والنقوش المحكمة الدقيقة التى تحاول أن تشغل العين عن هذا البناء الضخم؟ أهى تعاويذ ورُقَى أم هى محسنات البديع فى هذا الشعر البليغ !

وهذه الطرق التى يستبق فيها الماء والنبت إلى هذا البناء . وهذه المرايا التى تفرح بما تحوى من صور . وهذه المرآة العاجية العظيمة التى رفعت إلى هذا الوجه الجميل ليرى فيها جماله وسحره وفتنته .

ما تلك كلها فى فنون الشعر ؟ ما هى فى ضروب الموسيقى ؟ بل ما هى فى غرائب الأحلام ، وعجائب الآمال والأمانى ؟

***

إنما هـذا كله ، هـذا الذى تراه بناء ، أو لحناً أو غنـاء ، أو أحـلاماً أو أمانى أو أوهاماً — ظاهر باطنه أروع ، ولفظٌ معناه أجمل ، وعلانية سرّها أجل ، وصوت دلالته أدق ، وصورة معناها أرق .

وإنما باطنه هذان القبران . قبر السيدة التى شيد لها كل هذا الفن ، وقبر الزوج المحب الوفى الذى ترجم عن حبه ووفائه بهذه الأشعار ، مصوغة من الأشجار والمياه والأحجار . ومثّل الفكر البشرى والحضارة الإنسانية ، وعظمة الدول الإسلامية فى بناء كعنوان الكتاب ، تقرأ وراءه تاريخاً وتاريخاً ، وقصصاً وعبراً ، على هذا البناء الذى بقى على الدهر تمثالا للجمال والحب والوفاء .

عبد الوهاب عزام

النساء في القرآن الكريم

(بقية المنشور على صفحة ٨)

عند نشوزها فيردها إلى صوابها ؟ أم تترك لتسترسل فى نشوزها فتهدم بيتها وسعادتها وتشرد أطفالها ؟ .

أما الطريق الثانى فهو التحكيم وجاءت آيته بعد آية الطريق الأول للاشارة إلى أنه إنما يكون فى حالة عجز الرجل عن العلاج وعند تطور الحالة من النشوز إلى الشقاق ، وفى حالة ما إذا كان النشوز واقعاً من الزوج نفسه ، وقد خاطب الله بهذا العلاج الأخير جماعة المسلمين تركيزاً لما يجب أن يكون بينهم من التكافل على حفظ الأسر والبيوت . وعلى الحكام أن يقوموا بمثل هذا الواجب نيابة عن جماعة المسلمين .

وطلبت الآية أن يكون الحكمان فى هذا الشأن من أهل الزوجين ؛ وذلك نظراً إلى أن الشأن فى الأهل أن يكونوا أدرى الناس بأحوال الزوجين وأحرصهم على سعادتهما ، وأقدرهم على التأثير فى نفوسهما ، وأحفظهم لما قد يجدون بينهما من أسرار .

وإنك لتجد كل هذا فى قوله تعالى من هذه السورة « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان علياً كبيراً ، وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا » .

وبعد : فهذه صفحات النساء فى القرآن الكريم أقدمها للقراء إجمالا وتفصيلا ، وهى صفحات كما ترى ويرى كل ناظر فيها ، بيضاء نقية تبسط ظل السعادة والهناءة على الحياة الزوجية ، وتكون أسرة قوية فاضلة ، وتبنى مجتمعاً صالحاً يخوض غمار الحياة بقواه الذاتية وشعوره النفسى الدقيق . ولقد كان يودى أن أبسط القول فى شرح تلك الصفحات الإلهية ولكن الإنسان فى هذه الحياة مسخر لسلطان الظروف ، وحسب من يريد الحق هذا الإرشاد ، وكتاب الله قائم بين أيدينا ميسر للذكر والنظر فليرجع إليه من شاء والله ولى التوفيق والهداية .

محمود شلتوت